

د. مبارك بوطارن أستاذ محاضر

المدرسة العليا للأساتذة _ بوزريعة _ الجزائر

تمهيد:

يرجع نسب الزيريين إلى قبيلة صنهاجة وهي قبيلة بربرية ترجع أصولها إلى العصور التاريخية القديمة، وكانت تشغل المجال الجغرافي الممتد من الحدود الشمالية الشرقية لجلال الأوراس إلى مدينة تنس، وتذكر بعض المصادر التاريخية أنها كانت تعيش حياة متقلة بين منطقة وأخرى شبيهة بحياة البدو وقبائل الطوارق الحالية¹.

والجدير بالذكر أن هذه القبيلة . التي تنقسم إلى فرعين جنوبي ويرجع إليه الفضل في تكوين دولة المرابطين التي كان أفرادها يوصفون بالملثمين²، و شمالي الذي يشكل ثلث بربر المغرب حسب ما ذهب إليه ابن خلدون³. لم تبرز على ساحة الأحداث إلا مع مطلع القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، إذ لم يرد ذكر اسم هذه القبيلة قبل هذه الفترة ضمن مجموعة القبائل البربرية الأخرى التي وقفت بطريقة أو بأخرى في وجه الفتح الإسلامي للمغرب. وربما لا يمكن إغفال ما كان لهم من دور كبير في الحركة الخارجية بحيث اشتهروا بقسوتهم واستخدامهم العنف ضد أهل السنة وقد تجسد ذلك في وقوفهم إلى جانب الخوارج الصفوية بقيادة عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي (ت 140 هـ) قائد أمير ورفجومة عاصم بن جميل وتعاونهم من جهة أخرى مع عبد الرحمن بن رستم (ت 171 هـ) مؤسس مدينة تيهرت ومعاداتهم لممثل الخلافة السنية عمر بن حفص (ت 154 هـ).

وأما فيما يتعلق بنسبهم فقد تباينت في ذكره كتب الأنساب واختلف فيه المؤرخون فهذا مثلاً ابن خلدون⁴ قسم هذه القبيلة إلى عدة فروع منها طلقته. ويرى أن صنهاجة تتكون من أكثر من ستين عشيرة، لا يسع المجال هنا للإشارة إليها والإحاطة بها، بل سنكتفي فقط بالتطرق إلى الفرع الذي له علاقة مباشرة بتأسيس الدولة الزيرية⁵.

ولما كانت قبيلة طلقته هي التي عمرت المغرب الأوسط، في حين أن بقية القبائل الأخرى كانت تقطن المناطق الصحراوية، فإن حديثنا سيرتكز حول هذه القبيلة لما كان لها من دور بالغ الأهمية في تشييد المدن الصنهاجية التي من بينها مدينة أشير.

إن قبيلة طلقته⁶ التي هي أحد فروع صنهاجة لم تبرز على واجهة الأحداث إلا في القرن الرابع الهجري (التاسع الميلادي) وذلك على يد زيري بن مناد الطلقاتي الصنهاجي (ت 369 هـ) الذي يعد رأس الدولة وقد تبنى القضية العباسية بعدما تم إسنادها إليه من طرف آخر الخلفاء الفاطميين بأفريقية المعز لدين الله⁷ لقد استقرت هذه القبيلة في مجال جغرافي شبه جاف قليل الغلات يعتمد على مياه الأمطار في الري والزراعة وعلى تربية المواشي التي تتأقلم وهذا المناخ.

إن الإطار الجغرافي الذي تقطنه قبيلة صنهاجة الممتد بين زواوة شرقا وأرض قبيلة زناتة غربا، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منطقة الحضنة والمدينة جنوبا يتميز بصعوبة مسالكه وبوعورة تضاريسه المتكونة في الغالب من الجبال والتلال وقلة المياه التي تساعد على الزراعة، لذلك فقد كانت زراعتهم تعتمد على مياه الأمطار، فجاء جل النشاط الاقتصادي لصنهاجة معتمدا على تربية المواشي الأمر الذي جعلهم يستقرون في تجمعات بشرية صغيرة، ولا ينتقلون إلا عند الضرورة القصوى بحثا عن الغذاء لمواشيهم، ولما كانت تجمعاتهم البشرية تتخذ من المناطق الجبلية مواقع لها فقد كان أفرادها يعتمدون على المراعي الجبلية أثناء فترة الصيف، ويضطرون إلى النزول إلى السهول الجنوبية القريبة منهم أثناء فصل الشتاء بحثا عن المراعي، وكانت وسيلتهم في ذلك لقطع هذه المسالك الجبلية الوعرة هي الحمير والبغال. لقد تمكنت قبيلة طلقته بفضل قوتها وحكمة زعيمها وشجاعته أن توحد فخذ قبيلة صنهاجة حولها، فمناذ بن زيري هو أول من ظهرت زعامته بقوة، وهو الذي بدأ عملية التحضير الفعلي لتنظيم صفوف قبائل صنهاجة، حيث تمكن من توحيد هذه القبيلة والدفاع عن أراضيها ضد الغارات المتكررة لقبيلة زناتة، كما استطاع أيضا أن يبني علاقات طيبة مع الدولة الأغلبية وقدم لها خدمات جليلة، كما استفاد من مساعداتها المالية وكذا المساعدات الأخرى المتعلقة بميدان التسليح.⁸

إن مساعدة الأغلبية له كانت معتبرة حيث كانت تهدف إلى تمكينه من تأسيس منطقة واسعة خاضعة لسلطة قبيلة طلقته وهو الأمر الذي رسخه من جاء بعده من الحكام.

إن هذه الضرورة الملحة هي التي جعلت ابنه زيري بن مناد يحالف الفاطميين من أجل تقوية ساعده. وقد نتج عن هذا أن عم المنطقة الاستقرار الذي نعم به الزيريون وجعلهم يشيدون مدنا فاقت سمعتها بلاد المغرب الأوسط ولم يبق منها اليوم إلا خرائب تدل على الماضي المجيد لهذه الدولة. ومن بين هذه المدن **نخص**

بالذكر:

مدينة أشير:

تعتبر مدينة أشير أول الحواضر الثقافية الزيرية التي أصبحت فيما بعد تابعة للدولة الحمادية.

الموقع:

تتكون مدينة أشير من ثلاثة تجمعات بشرية هي: منزه بنت السلطان، أشير وبنيّة، وسنحاول في هذا البحث تقديم هذه المواقع الأثرية التي كانت في يوم ما مدنا لها شأنها، ويحسب لها حسابها في المغرب الأوسط.

بتأسيس هذه المدينة يبدو أن زيري بن مناد أصبح سلطانا يحسب له ألف حساب، حيث جاءت هذه المدينة كنتاج للتنظيم الذي بلغه زيري بن مناد، والمتمثل في إنشاء إمارة ستعرف فيما بعد باسمه وذلك سنة 324هـ/935م. أضف إلى هذا أن هذه الإمارة كان لابد لها من عاصمة تمثل قلب الدولة الجديدة، نظرا إلى كون قبيلة صنهاجة كانت تعيش حياة نصف بدوية، ولم تكن لها في مضاربها مدن كبيرة. لقد ظهرت بهذه القبيلة العتيدة زعامات كثيرة، لكنها لم تحقق الملك، ذلك أنها لم تتمكن من إخراج القبيلة من النظام التقليدي القبلي إلى نظام الدولة، فالملك يحتاج إلى قصر يستقبل فيه ضيوفه وإلى مدينة تعرف به ويتولى فيها تدبير شؤون ملكه.

لقد اجتهد زيري بن مناد على أن لا يكون قائد قبيلة فحسب، بل عمل على أن يكون ملكا محترما، فأسس مدينة محصنة وبنا فيها قصرا يضاهي في فخامته قصور مدينة القيروان أو المهديّة.⁹ إن تأسيس مدينة أشير يطرح سؤالا محيرا لم يجد له المؤرخون وعلماء الآثار المختصون بالفترة الإسلامية إلى يومنا هذا جوابا مقنعا، فالنصوص التاريخية التي هي بحوزتنا أو تلك التي تمكننا من الوصول إليها، ليست بالكثيرة ولا بالواضحة، فأكثرها تفصيلا نص النويري¹⁰ الذي كتب في القرن الثامن الهجري (14م)، والذي اعتمد في كتابه على كثير من المصادر التي نعرف بعضها ولم يصلنا البعض الآخر. وأهم ما جاء في حديثه قوله أن زيري بعدما تمعن في دراسة موضع المدينة قال لأصحابه هذا هو المكان الذي يليق بمقامكم، ثم عمد إلى بناء المدينة وكان ذلك في عام 324هـ/935م في عهد الخليفة الفاطمي القيم بن المهدي.

وخلاصة القول أن زيري بن مناد لم يكن قائدا مغامرا بل داهية يمتاز بالحكمة والذكاء الأمر الذي جعله يستطيع أن يوحد طاقات قبائل كانت متناحرة تحت سلطته ليصل إلى مبتغاه الذي كان ينشده. لقد تمكن هذا الرجل الفذ من إيصال قبيلة طلقته إلى أعلى المراتب كيف لا وهو الذي كان في نعومة أظافره يتزعم أطفال القبيلة حسب ما ذهب إليه النويري¹¹. لقد كان قائد حرب وزعيم بني طلقته، فهو الذي قادهم في غزواتهم المتكررة على مواطن زناتة، وهو الذي استطاع أن يأسر منهم الكثير وأن يقتل منهم .

كون زيري بن مناد جيشا تميز بنظامه وبطاعته العميائه، إن هذا الجيش سيمكنه إلى جانب قبيلته من السيطرة على فخذ صنهاجة المختلفة، ولم يتمكن من هذا الأمر إلا بعد مواجهته لصراعات عديدة لم يسلم منها بني عمومته الذين حاربهم حتى تمكن من الوصول إلى توحيد هذه القبيلة وتنظيمها تنظيمًا محكمًا وإعدادها إعدادًا جيدًا لتنتقل من التنظيم القبلي إلى تكوين دولة تضاهي في تنظيمها بقية الدول الأخرى ولينتقل هو من كونه شيخ قبيلة إلى اعتلاء مرتبة الأمير أو السلطان ويتمكن من بسط نفوذه على أراضي صنهاجة.

لقد تمكن من خلال حربه مع زناتة أن يجمع عددا كبيرا من الخيول كما غنم كمية هائلة من الأسلحة مكنته فيما بعد من الوقوف لمساندة الفاطميين في أحلك أيام حكمهم عندما تمكن منهم صاحب الحمار يزيد مخلد بن كداد الذي سيطر على كل بلاد المغرب ولم يبق للفاطميين من ملكهم إلا ما احتضنته أسوار المهديّة.¹²

لقد جاء زيري بن مناد بالبناء والنجارين والعمال في مختلف الاختصاصات من المسيلة وحمزة (البويرة الحالية) وطبنة وطلب من الخليفة الفاطمي القيم أن يرسل له أمر المهندسين، وطلب منه أيضا أن يرسل له كمية هائلة من الحديد والمواد الإنشائية التي توجد في المغرب الأوسط، وبدأ بعد ذلك العمال في بناء المدينة، وبعد الانتهاء من أعمال البناء توجه زيري بن مناد إلى طبنة والمسيلة وحمزة ليحمل منها الطبقات الفاعلة من السكان إلى عاصمته الجديدة¹³، وهكذا عمرت مدينة أشير بسكان لهم تقاليد حضرية وأصبحت من أكثر المدن تحصينا.

لقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن هذه المدينة لا يستطيع أحد أن يدنو منها إلا من ناحية الشرق وهذه إشارة للتحصينات الطبيعية التي تمتاز بها من الجهات الثلاث الأخرى، وأن عشرة من الرجال الأشداء باستطاعتهم أن يدافعوا عنها من هذه الناحية.¹⁴

إن موضع المدينة يمتاز بحصانته الطبيعية الهائلة، فالمدينة أسست على رأس جبل تحيط بها فجاج عميقة إلى درجة يمكن في كثير من الأجزاء الاستغناء عن السور الذي كان يمثل الوسيلة التحصينية الأولى في أغلب المدن الإسلامية المغربية، بل قد اكتفى الزيريون بتحسين بعض النقاط الضعيفة طبيعيا من حيث التحصين ببناء أسوار لسد هذه الثغور وأن الذي زاد من قيمة هذا المكان احتواءه على عيون تسقي المدينة وأن مياهها كانت غزيرة وتمتاز بجودتها.

لقد عاشت المدينة في عهد زيري بن مناد حياة امتازت بطابع الخشونة، فأهلها لم يكونوا يتعاملون بالنقود فلم نعثر على دلائل أو إشارات في الكتب التاريخية تؤكد تعامل أهل هذه المدينة بمختلف أنواع النقود من ذهبية وفضية، بل المرجح أن أهلها كانوا يقايضون القمح بالحيوان إلى غير ذلك من أنواع السلع.

إن هذا الأمر جعل الأمير الجديد يستدرك الأمر ويضرب النقود التي هي رمز سلطته وينشئ جيشاً نظامياً يتقاضى أفرادهم راتبهم بانتظام.

لقد عمدت القبائل البدوية التي تعيش في هذه المنطقة بعد تأسيس مدينة أشير وما تبع هذه الخطوة من استتباب الأمن الذي وفره النظام الجديد في المنطقة وإلى السوق الرائجة التي تمثلها مدينة أشير إلى الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار والعمل في الميدان الزراعي.

ومن جهة أخرى فقد أشار البكري¹⁵ الذي كان معاصراً لفترة ازدهار المدينة إلى أن أشير كانت من أعظم مدن المغرب ويذهب إلى القول أن هذه المدينة لم يكن لها مثيل في المنطقة من ناحية التحصين وإن عشرة رجال بإمكانهم الدفاع عنها، ذلك أنه لا يوجد مسلك يربطها ببقية العالم الخارجي إلا من الناحية الشرقية، هذا المسلك الذي يؤدي إلى عين مسعود، ففي كل الاتجاهات الأخرى كانت الصخرة التي شيدت عليها المدينة ترتفع عن سطح الأرض بارتفاعات كبيرة بحيث لا يستطيع أحد تسلقها، زد على ذلك فإن الناحية محصنة طبيعياً ذلك لأنها منطقة جبلية ذات مسالك ضيقة ووعرة في نفس الوقت.

أما مصادر مياه المدينة فكانت في الداخل، حيث كانت تنهمر المياه من عينين هما عين سليمان وعين تيراغ.¹⁶

لقد بنا بلكين بن يوسف بن زيري بن مناد تحصينات المدينة سنة 367هـ/977م لكنها خربت سنة 440هـ/1048م من طرف يوسف بن حماد وابن زيري الذي خرب المدينة وترك جيشه ينهب ويحرق ويعتدي على أعراض الناس، إلا أن المدينة قد تمكنت بعد خمسة عشرة سنة من أن تعود كما كانت عليه في أعز أيامها.

اختلفت المصادر التاريخية حول أمرين أساسيين هما تاريخ إنشاء مدينة أشير ومؤسسها، فالبكري الذي كتب في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي يذكر أن الذي أنشأ مدينة أشير هو زيري بن مناد¹⁷. أما النويري المتوفى سنة 733هـ/1332م¹⁸ والذي اعتمد على نصوص عديدة من ضمنها نص البكري فيبدو أنه اختلطت عليه الأمور فتارة يتحدث عن أشير وتارة أخرى عن مدينة بنية وهو يصف نفس الموقع وكأنه كان يجهل وجود مدينتين يحمل كل منهما اسماً من هذه الأسماء.

أما ابن خلدون¹⁹ الذي كتب في هذا الموضوع في القرن 9 هـ/15م، فإنه لم يأت بالجديد في موضوع تأسيس مدينة أشير ومؤسسها، وكأنه كالنويري لا يعلم أن هناك تجمعين سكنيين مختلفين أسسا جنباً إلى جنب في وقت متقارب من الزمن.

لقد وقف علماء الآثار في حيرة من أمرهم أمام هذه المعلومات المتضاربة ولم ينتبه الكثير منهم إلى نص ابن الأثير الذي يكتسي أهمية كبيرة. ذلك أن هذا النص أزاح بعض الغموض حول هذا الأمر، فقد كتب هذا الأخير في أواخر القرن 6هـ / 12 م وبداية القرن 7هـ / 13م وقد تطرق في كتابه إلى غزوات بلكين. جاء في معرض حديثه أن بلكين تقدم نحو أعدائه الزناتيين وجعلهم يحاربون ويتقهقرون إلى الخلف ثم بدأ في حصار تلمسان ودخلها في آخر المطاف وأعلن سكانها الخضوع، فعفا عنهم وقرر نقلهم إلى مدينة أشير حيث أسسوا مدينة جديدة سموها أيضا باسم تلمسان وقد جرت هذه الأحداث في سنة 361هـ/972م²⁰. ويشير نفس المؤرخ في موضع آخر من كتابه²¹ أنه بعد انتصاره على أهل تلمسان قادهم إلى الموضع الذي ستنشأ فيه مدينة أشير، فلما راقهم لكثرة عيونه، أسس المدينة التي تحمل هذا الاسم حيث أمر أصحابه بالإقامة فيها، لكن هذا الكلام لا يتفق مع ما جاء في نصوص تاريخية أخرى التي ترى أن زيري هو الذي أسس المدينة، ثم أن ابن الأثير نفسه يتكلم عن وفاة زيري سنة 361هـ، إذن فالمراد به هنا هو بلكين بن زيري وهذا ما يؤكد ما جاء عند البكري²² مع اختلاف بين البقية في تاريخ التأسيس الذي لا يتعدى عدة سنين.

والحقيقة أن البكري تكلم عن بناء تحصينات ولم يتكلم عن تأسيس مدينة، إن كل هذه الأمور لا تسهل من مهمة المؤرخ للحصول على الحقيقة التي ينشدها، إلا أننا نستطيع من خلال نص ابن الأثير أن نتأكد من تأسيس جماعة التلمسانيين الذين استقدمهم بلكين معه لمدينة أعطوها اسم مدينتهم الفعلية، فنحن نعرف أن مثل هذا الأمر قد وقع أكثر من مرة في تاريخ المغرب في العصر الوسيط، ففي فاس أسس المهاجرون إليها من مدينة القيروان عدوة سموها بعدوة القرويين. كما أسس أيضا المهاجرون إليها من الأندلس عدوة سموها بعدوة الأندلسيين²³. والسؤال المطروح بحدّة هو: هل تلمسان ذلك الزمان هي المدينة المعروفة ببنيّة في الوقت الحاضر؟ ذلك أننا لسنا متأكدين من هذا الأمر جيدا، ومع ذلك نستطيع التكهن بأن بلكين فهم بسرعة قيمة موضع هذه المدينة التي أنشأها قرب العيون وعلى سطح جبل كاف الأخضر من حيث يستطيع أن يسيطر على السهول المقابلة، فعمل على أن تصبح مدينة بنية عاصمة للزيريين في أول عهدهم فرحل إليها قبيلة صنهاجة. ومهما يكن من أمر فإنه يجب الاعتقاد بوجود مدينتين: الأولى أنشئت من طرف زيري والثانية من طرف بلكين، وكلاهما تحمل نفس الاسم.

إن المستكشف لموضع مدينة أشير القديمة، يلاحظ وجود عين من الماء على بعد نحو واحد كلم من مركز الموضع، هذه العين قليلة الماء وتسيل في وسط مجرى عميق وضيق.

ورغم أن البقايا الأثرية تدل على أن المدينة توجد على بضع مئات من الأقدام شرقي السور، وأن هذه الأخيرة تتمحور حول أطلال قصر زيري، فإن مخطط هذا القصر يظهر مدى اهتمام الزيريين بالمنشآت المائية، فهناك قنوات ممدودة وهناك بيوت ماء وحمامات خاصة، وكل هذه المنشآت تدل على استعمال كميات هائلة من المياه في الحياة اليومية، ونحن نرى بل ونعتقد اعتقاداً جازماً أن أمراء بني زيري قد استعملوا العيون الكثيرة الموجودة في قمة جبل الكاف الأخضر لتلبية حاجاتهم من المياه، كما هو الشأن في قلعة بني حماد. فالحماديون بنوا بالقلعة قصورا فخمة منها قصر البحر الذي زودوه بحوض مائي ضخم كانت تقام فيه السباقات المائية.

إن المتمعن في الثروة المائية لقلعة بني حماد يعي أنها كانت لا تكفي لسد حاجات المدينة فما بالك في إنشاء الأحواض الكبيرة التي تحدثت عنها بعض المصادر التاريخية وأثبتتها الحفائر الأثرية، الأمر الذي دفع بالمهندسين الحماديين إلى جلب المياه الصالحة للشرب لسد النقص المسجل في هذه المادة الحيوية من الأماكن البعيدة، واستعملوا في ذلك تقنيات هندسية متقدمة.

إن موضع مدينة أشير كان موضعاً استراتيجياً من الناحية الدفاعية، لكنه كان بالمقابل ضعيفاً من ناحية قدراته المائية مما يفسر معاناة أهل أشير من قلة المياه ومن صعوبة جلبها وتوفيرها بكميات كافية للمدينة خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الكميات الهائلة التي تحتاج إليها المرافق العمومية وقصور الأمراء، وهذا أيضاً يجعلنا نتصور الأموال الباهضة التي وجب إنفاقها من أجل توفير هذه المادة الحيوية، وعلى العكس من ذلك فإنه في جنوب أشير وعلى مسافة قصيرة من مدينة أشير، ووسط سهل صغير توجد قمة كاف تيسمسائل موضع مدينة بنية حيث يلاحظ وجود بقايا أطلال تتمثل في خرائب السور وبعض بقايا المسجد، كما يلاحظ بينها بقايا آثار عدد من العيون التي كانت تسقي سكان المدينة فيما مضى وهي ما زالت مستعملة إلى الآن وأن بعضها مازال يحمل أسماء قديمة ورد ذكرها عند البكري²⁴.

إن هذه المدينة المسماة بأشير تحتل موقعا مهما في قلب المغرب الأوسط، وتتخذ من موضعها الكائن على جبل الكاف الأخضر موقعا استراتيجيا تسيطر به على منطقة الهضاب العليا وعلى السهوب الجنوبية، كما أهلها موقعها هذا لأن تكون ملتقى أهم مسالك التجارة في العصر الوسيط، حيث أن القوافل التجارية آنذاك كانت تسلك طريقين مهمين في الناحية هما:

- مسلك الهضاب العليا والأطلس التلي.

- مسلك الحدود الصحراوية، الذي يسير جنوبا بمحاذاة الأطلس الصحراوي.

يعتبر المسلك الأول هو السهل بالنسبة للقوافل التجارية حيث يمر بمنطقة الحضنة واليطيري ثم منهما إلى تيهرت ثم يتجه إلى الجنوب المغربي مرورا بفرندة أو يصعد إلى معسكر وتلمسان.

إن مدينة أشير غير بعيدة عن وادي ملاق (وادي يسر) حيث أن مجرى هذا الوادي يمر بمنطقة جبل الأخضر الجبلية وسهول منطقة البرواقية، وإلى جانب هذا الوادي نجد هناك مجرى وادي آخر هو وادي الحراش حاليا الذي ينطلق من نفس المنطقة ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

إن الناظر إلى موقع مدينة أشير وموضعها وما اشتمل عليه من تضاريس ومميزات جغرافية سيدرك لا محالة أن زيري بن مناد لم يختار هذا المكان بسهولة دون دراسته من مختلف الجوانب بل إنه يكون قد اختار هذا المكان بعد تفكير طويل احتاج فيه إلى مشاورة من لهم الدراية بمثل هذه المواضيع.

ولعلنا لن نكون مخطئين إذا قلنا: إن مثل هذا الكلام الذي أشرنا إليه حول مدينة أشير لا يمكن أن نستثني منه مدينة منز بن بخت السلطان، فقبيلة صنهاجة كانت تقطن منطقة جبال التيطري منذ عهد بعيد، وأن موضع مدينة منز بن بخت السلطان لم يكن غريبا عن أفرادها، كونه حصنا استراتيجيا من الدرجة الأولى استغلته القبيلة لتودع فيه أموالها وميرتها (المؤونة) حتى تبقى محفوظة لا تصل إليها أيادي الغزاة.

وإن زيري لم يبتعد كثيرا عن المناطق التي تسيطر عليها قبيلته بل أنشأ مدينته بجوارها، والسؤال المطروح لماذا لم يختار مكانا تكثر فيه عيون الماء وسهولة الحياة؟.

وإن أي محاولة للإجابة عن هذا السؤال تبقى نسبية وذلك لصعوبة الموقف ولجهلنا للماضي وللرغبة الملحة التي كان ينشدها أمراء بني زيري، غير أنه إذا ما حاولنا إعطاء تفسير لهذا السؤال فربما أن أول شيء سوف ندركه ويدركه غيرنا هو القول بأن زيري بن مناد أراد لمدينته موقعا استراتيجيا دفاعيا وفضله عن المواقع الأخرى التي يكثر فيها الماء من جانب ومن جانب آخر تمتاز بضعف من ناحية التحصين الطبيعي، ذلك أن الدولة الزيرية في عهد زيري بن مناد كانت في أول عصور تكوينها وأن الأمير زيري أراد لها أن تكون عاصمة محصنة ضد أعدائها وضد المناوئين له من قبيلة صنهاجة نفسها، أضف إلى هذا كون أن أعلى قمة جبل الأخضر كان يشغلها برج للمراقبة ولإرسال الإشارات وهو نظام للاتصال كثيرا ما استخدم في العصور الوسطى لتبليغ الأخبار خاصة منها التي تتعلق بالحروب والسلام.

فقد كان هذا البرج يستخدم في مراقبة تحركات قبيلة زناتة ونشاطاتها في منطقة الهضاب العليا.

ولقد ساعد الخليفة الفاطمي المنصور حليفه زيري بن مناد في تحصين مدينته التي أصبحت من أكبر مدن المغرب تنعم بالسلام والأمان وفد إليها العلماء والتجار فأصبحت تعج بهم وارتقت بهم إلى مصاف الحواضر الإسلامية الأخرى²⁵.

مدينة أشير:

ولقد سبق أن أشرنا في بحثنا هذا إلى أن مدينة أشير تتكون من ثلاثة أحياء سكنية هي منزه بنت السلطان، وأشير وبنية، فأطلال المدينة الأولى أي منزه بنت السلطان تقع على جبل الكاف الأخضر الشرقي وتحديدا في منازل قبيلة أولاد علان زكري.

إن مجموعة البنايات التي تتكون منها هذه المدينة تدل على أنها كانت حصنا أسس في الفترة التي تم فيها تأسيس مدينتي أشير وبنية واللذان تتخذان من المنطقة نفسها موقعا لهما²⁶.

أما مدينة أشير كما وردت في بعض المصادر التاريخية²⁷ ووردت أيضا في بعض الدراسات الحديثة²⁸. فهي تستند إلى السفح الجنوبي للكاف الأخضر في مقابلة مدينة بنية التي لا تبعد عنها إلا بمسافة 2 كلم ونصف، وهذه الأخيرة أي مدينة بنية تقع هي الأخرى على السفح الشمالي الغربي لجبل كاف تيسمسائل الذي يشكل في هذه المنطقة هضبة تطل على سهل وادي الهواد .

إن تاريخ المدن الثلاثة يرجع لا محالة إلى فترة واحدة، كما أن الانتشار الواسع لأطلال مدينتين كبيرتين منهن يدل على أنهما كانتا كثيرتي السكان، وأنه بإمكاننا اليوم استنادا إلى شساعة المساحة التي يحيط بها السور، وانطلاقا أيضا من الانتشار الواسع لأطلال الأحياء السكنية أن نتخيل العدد الهائل من السكان الذين كانوا يقطنون بها، مما يجعل منها مدينة تضاهي الحواضر الإسلامية الأخرى في تلك الفترة. والملاحظ على مدينة أشير وجود أحياء شاسعة تقع خارج أسوار المدينة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الزيريين لما وفروا الأمن والأمان والاستقرار لبلاد المغرب الأوسط، كبرت أرباض المدينة التي أصبحت في مساحتها أكبر بكثير من المدينة نفسها، وربما قد لجأ الزيريون إلى هذه الفكرة بعد أن ضاقت المدينة الواقعة داخل الأسوار بالسكان، فافتضت الضرورة إلى التوسع خارجها، وهي أراض يمكن التوسع عليها إلى أبعد الحدود. خاصة إذا علمنا أن هذه الأرباض لم تكن محاطة بأسوار كما جرت العادة في أغلب المدن الإسلامية، وإنما الذي كان يحيط بهذه الأرباض هو الحدائق والبساتين التي كانت مصدر رزق لأهل المدينة.

التسمية:

يتفق أهل الناحية على إعطاء اسم يشير أو الأشير²⁹ على الأطلال أو الخرائب الموجودة جنوب جبل الكاف الأخضر، مقابل موقع بنية، وتتميز هذه الأطلال بصعوبة التعرف عليها إلا بعد استكشاف دقيق للموضع. توجد هذه الآثار على هضبة قليلة الانحدار إلى الجنوب يحميها سور يمكن التعرف على حدوده رغم الأضرار الكبيرة التي لحقت به من جراء العوامل الطبيعية وامتداد يد الإنسان إليه، حيث سقطت كثير

من أجزائه بما فيها أساساتها إلى الفج المقابل واستعمل من طرف السكان المحليين لبناء منازلهم أو استعملت كحواجز تحمي بساكنيهم

لقد كان متوسط سمك الأسوار يبلغ حوالي مترين، كما أنها كانت مبنية بحجارة الدبش³⁰، وقد أتبع في بنائها نفس الأسلوب المتبع في منزله بنت السلطان من حيث طريقة الدفاع، إذ اقتصر الزيريو ن في بناء الأسوار وتدعيمها على المناطق التي لا تتمتع بالتحصينات الطبيعية، وربما هذه النقطة تتطلب منا الوقوف قليلا عندها حتى نبين الدافع إلى اتباع هذه الطريقة. ويعتقد أنه إذا كان الزيريون قد تقطنوا إلى اتخاذ المواقع المرتفعة لإنشاء مدنهم اتقاء شر الأعداء وتقليصا من خطرهم تماشيا مع طبيعة حياتهم في المنطقة التي كانت تعتمد أساسا على الغزو مما جعلهم يختارون لمدنهم الثلاثة مواقع محصنة طبيعيا. فإنهم أيضا لجأوا إلى هذه المواقع حتى يكفلوا أنفسهم وسكانهم صرف الأموال الطائلة من أجل عملية التحصين لو أنهم شيدوا مدنهم في أراضي منبسطة، ناهيك عن الوقت الذي قد يستغرقه البناء من أجل إحاطة المدينة بأسوار عالية وسميكة قد تتطلب سنوات من العمل الشاق، لذلك اكتفى الزيريون بسد بعض الثغور التي لا تتمتع بحصانة طبيعية بالأسوار، وهكذا جاءت أسوار مدينة أشير عبارة عن أجزاء بسيطة تمتد من الناحية الشمالية البعيدة قليلا عن صخرة جبل الكاف الأخضر، في حين تطل المدينة من الجهتين الغربية والشرقية على فجين طبيعيين عميقين يتراوح انخفاضهما تحت مستوى المدينة بحوالي 25 إلى 40 مترا أما من ناحية الجنوب، فإن المدينة يتقدمها مرتفع ترابي يبلغ ارتفاعه ما بين 5 إلى 10 أمتار.

إن كل هذه التحصينات الطبيعية منها والتي بناها سكان المدينة تجعل من المدينة فضاء يتربع على مساحة تقدر بحوالي خمسة عشرة هكتارا وأن هذه المساحة الأرضية قد زرعت على مر السنين من طرف السكان الحاليين للمنطقة مما جعل معالم الموضع تكاد تنطمس نهائيا.

إن الزائر للمنطقة وقيامه بعملية استكشاف علمية منهجية يستطيع أن يلاحظ بعض آثار البناءات المدرسة التي كانت داخل المدينة وأنه سيخلص لا محالة إلى نتيجة من خلال هذه الشواهد المادية هي: إن المدينة كان لها مخطط منتظم وأن هذا المخطط لم يوضع هكذا اعتباطا وإنما يكون قد خضع إلى دراسة مطولة قبل البدء في عملية إنشاء هذه المدينة، ودليلنا على ذلك وضعية الكتل البنائية وكيفية انسجامها من جهة ومن جهة أخرى موقع المنبعين اللذين يزودان المدينة بالماء الشروب، حيث جاء موقعهما في الناحية الشمالية للمدينة في مكان مرتفع عنها مقابل جبل كاف الأخضر دليل على مهارة المعمار الزيري، ذلك أن هذه الجهة تتميز بانعدام البناء فيها حيث لم يعثر فيها إلا على بقايا من حجارة الدبش والقرميد والآجر وليف وبقايا الفخار.

هذا فيما يخص المنشآت التي بداخل الأسوار أما خارج هذه الأسوار فيلاحظ هناك الكثير من الخرائب المتواجدة في أراضي الحرث يمكن أن يرجع إنشاؤها إلى بداية العهد الزيري أي أنها معاصرة للمدينة.

مدينة منزله بنت السلطان:

إن الحصن المسمى بمنزه بنت السلطان³¹ يقع على الجزء الأعلى من قمة صخرية ومستوية تحيط بها فجاج عميقة لا يستطيع أحد عبورها ولم يبق إلا بعض النقاط القليلة التي تمكن من الدخول إلى الموقع، هذه الأخيرة فقط هي التي قام الزيريون بتحسينها في حين أبقوا على التحصينات الطبيعية بالنسبة للأجزاء الأخرى من المدينة.

ويمتد موضع مدينة منزه بنت السلطان من الجنوب إلى الشمال ويمتاز بقلة انحداره من الناحية الشرقية، يبلغ ارتفاعه على مستوى سطح البحر حوالي 1300م، وأن هذا الموقع في الحقيقة مواز لقمة جبل الكاف الأخضر وهو منفصل عن الكتلة الأساسية لهذا الجبل ويقع في مستوى منخفض عن قمة الجبل بحوالي 150م.

إن هذا الموضع الحصين طبيعياً محدود بفجاج عميقة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك من النواحي الشمالية والغربية والشرقية وهذه الفجاج تقل عمقا من الناحية الجنوبية مما يجعله موقعا يصعب الوصول إليه بسرعة، غير أنه من ناحية التحصين يعتبر موقعا استراتيجيا ودفاعيا إلا أنه من ناحية المراقبة يعتبر أقل مكانة، حيث تقف قمة جبل الأخضر حاجزا أمامه على بعد 200م ولا يستطيع الناظر أن يبلغ مدى بصره أبعد من هذه النقطة كون أن قمة هذا الجبل ترتفع على مستوى موقع منزه بنت السلطان بحوالي 150م، وهو الأمر الذي تطرقنا إليه في الفقرة السابقة.

وإن مساحة الموقع تتراوح أبعادها ما بين 276م طولا و 25م عرضا وهذه الأطوال هي في الحقيقة أبعاد الصخرة التي اتخذت موقعا لهذه المدينة، ورغم هذا التحصين الطبيعي إلا أن الزيريين زدوا مدينتهم هذه بأسوار ضخمة لكننا لا نستطيع اليوم معرفة علوها على أرضية المدينة الداخلية بسبب اندثارها في حين يمكننا أن نقدر سمكها بحوالي 2م.

إن أساسات الأسوار وضعت على الصخرة المدرجة بطريقة تجعلها متينة فاستخدم في بنائها دعائم تشبه شكل حرف T اللاتيني تزيد من متانة ودعمها لها حتى تجنبها السقوط والانهيال نحو الخارج. وإن هذا السور الذي هو في وقتنا الحاضر لم يبق منه قائما إلا بعض معالمه، فإن بعض الكتابات أشارت إلى أنه كانت بعض أجزائه قائمة في بداية القرن العشرين، ففي أعلى قمة الموضع كان هناك برج نصف دائري مكون من غرفة كانت تستعمل كمأوى للجند، وكان هذا البرج يستعمل أيضا كنقطة مراقبة المناطق الشمالية لتحصينات المدينة، أما الجهة الغربية فكان بها أيضا برج آخر وظيفته التحكم في المسلك الوحيد المؤدي إلى الحصن الرئيسي.

وإذا ما حاولنا دراسة المباني التي تتكون منها المدينة والتي ما زال بعض أجزائها قائما إلى اليوم، نقول أن البنايات الداخلية للمدينة الحصن تتكون من برج نصف دائري يقع في أقصى نقطة من الجهة الشمالية للحصن، ومن مجموعة بنائية مركزية تستند إلى صخرة كبيرة من خزان المياه يقع في الجهة الجنوبية للصخرة.

أما عن الأسلوب المتبع في البناء، فقد استعملت فيه الطريقة البنائية العادية والبسيطة في الوقت نفسه، وهنا يجدر بنا الوقوف على تفاصيل هذه المجموعات البنائية وذلك للمزيد من التوضيح.

فالخزان مربع الشكل أضلاعه تبلغ عشرة أمتار من الطول، أما عمقه فيصل إلى متر ونصف المتر من العمق وإن سعته من المياه تبلغ 150 مترا مكعبا.

أما مجموعة البناء المركزية فتتكون من عمارتين يفصل بينهما صحن داخلي، وأن كل بناء من هذه البناءات مستطيل الشكل طوله 15م وعرضه 6م، وكل بناء مستطيل يقسمه سور داخلي بطريقة يجعل منه مستطيلين، والكتلة البنائية ككل تكون أربع حجرات اثنتين تقعان شمال الصحن الداخلي واثنين جنوبه. إن هذه المساحة المبنية يمكن لها أن تؤوي حوالي أربعين رجلا، أما الصحن الداخلي فمن الممكن جدا أن يكون مكانا للتجمع فيه، أضف إلى ذلك أن الحصن الشمالي يمكن أن يؤوي أكثر من عشرة رجال، الأمر الذي يجعلنا نقدر عدد الجند في هذا المجمع الدفاعي بحوالي 50 رجلا، ويمكن أن يرتفع هذا العدد في مناسبات أخرى، أي في أيام الثورات والحروب حيث يمكن لمجموعة من الرجال والنساء والأطفال وبعض مواشيهم أن تجد في هذا المكان مأوى يحميها من هجمات العدو خاصة إذا علمنا أن هذا الحصن كان منيعا، وأن هذه المنشأة البنائية والدفاعية في آن واحد لم تكن مزودة إلا بباب واحد يربطها بما جاورها من التجمعات السكانية، ولم يعثر له لا على أبواب أخرى ولا على أنفاق تحت الأرض تربط هذه المدينة (منزه بنت السلطان) بما يجاورها وذلك سيرا على نمط بعض المدن الإسلامية الأخرى.

وكان هذا الحصن يأخذ ماءه من عين تسمى عين بن عزوز تقع على بعد 200م من الجهة الجنوبية الشرقية، وتتخذ من فج عميق مواز لقمة صخرة منزه بنت السلطان موقعا لها، وقد كانت لاتزال قائمة إلى بدايات القرن العشرين حسب بعض الدراسات الحديثة³² شاهدة على الماضي التليد لهذا الحصن العتيق، رغم أنها كانت في تلك الأثناء قليلة المياه.

إن مدينة منزه بنت السلطان، كانت حصنا يسهل الدفاع عنه، إلا أنه كان ضيقا من حيث المساحة، بحيث لا يستطيع أن يأوي العدد الكبير من المدافعين، علما أنه كان أيضا محدودا جدا من حيث إمداده بالمياه الصالحة للشرب بما يكفي وحاجة الأعداد الهائلة من المدافعين، وهذا ما يجعل الدفاع عنه في حالة الحصار عملية صعبة للغاية، وربما هذه المشاكل ناجمة عن كونه أول مدينة بناها الزيريون قبل بنية وأشير مما يوحي لنا بالبدايات الأولى لاستقرارهم إذ ربما كان الأمر لا يتطلب مساحات كبيرة لاستقرارهم مما يفسر قلة عددهم في الأول.

أما عن الطريق الموصل إليها من مدينة أشير والذي يربطها أيضا بمدينة بنية فكان ينطلق من أشير متتبعا الحافة الصخرية من القاعدة العليا للكاف الأخضر حتى يصل إلى كاف السمير ثم يقطع عنق فج السمير ثم يمر عبر خط من القمم الجبلية ثم ينحدر على السفح الشمالي للكاف الأخضر لينعطف بعد ذلك

إلى جنوب الصخرة التي تستند إليها مدينة منزه بنت السلطان ليصل غربا إلى المدرج الذي يصعد به إلى الحصن.

مدينة بنية:

تقع مدينة بنية في موضع يتربع على السفوح الشمالية الغربية لكاف تيسمسائل، قبالة مدينة أشير حيث لا يفصل بينهما إلا مسافة اثنين كيلومتر ونصف.

يعد موضع مدينة بنية موضعا استراتيجيا فهو مكون من هضبة يمكن من خلالها التحكم في المنطقة ومراقبتها، ذلك أنه يطل على ثلاثة اتجاهات هي الغرب والشمال والشرق، أما من ناحية الجنوب فينتهي بحصن يتوج قمة الجبل الصخرية لكاف تيسمسائل. مما يجعل منه موضعا دفاعيا من الدرجة الأولى.

أما سورها فيستند إلى قاعدة صخرية وهو سور عريض سمكه كسمك سور مدينتي أشير ومنزه بنت السلطان أي حوالي مترين، وكان ذا علو مناسب إذا ما قدرناه من خلال الأكوام الحجرية المتساقطة ، وقد روعي في بنائه إتباع خطوط الانكسار المشكلة للهضبة التي أنشئت عليها هذه المدينة .

وأما أحياء المدينة فتتربع على مساحة إجمالية تقدر بخمسة وثلاثين هكتارا، وهي تنقسم إلى قسمين يختلفان من حيث المظهر العمراني. فمخطط الجهة العلوية والمحددة بأكوام من التربة المتواجدة ما بين باب الماء وعين بنية يتميز بالانتظام، وقد كان يقطنه عليّة القوم من القادة والجند.

أما الجهة السفلية من المدينة وهي التي تتميز بكثرة الاتساع مقارنة بالجهة العلوية فهي مبنية على شكل مدرج واغلب بناياتها مبنية على أرضيات منحدرية.

وفي ختام هذه الدراسة يمكن القول أنه مهما قيل عن مدينة أشير فإننا لا نستطيع أن نعطيها حقا في غياب النصوص التاريخية وفي غياب الدلائل المادية ، ومهما يكن فإن أشير التي أنشأها زيري بن مناد سنة 324هـ كمركز حربي لمقاومة قبيلة زناتة التي امتنعت عن طاعة العبيديين والتي كانت تشكل خطرا عليهم سرعان ما أصبحت حاضرة إسلامية قوية بفضل حنكة أميرها الذي جلب إليها البنائين والحرفيين المهرة من المدن القريبة منها كالمسيلة وطبنة فتفننوا في تخطيطها وبنائها حتى اشتهرت في تلك الأثناء بمتانة تحصينها وبإحكام تخطيطها فوصفها المؤرخون بأجمل الأوصاف ونعتوها بأحسن النعوت.

الهوامش:

- ابن خلدون، كتاب العبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 179.
- ²- ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، المكتبة الأندلسية، 1980، ص 254.
- ³- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 179.
- ⁴- المصدر نفسه، ص 179.
- ⁵- المصدر نفسه، ص 180.
- Golvin (L), le maghrib central à l'époque des Zirides, Paris, 1957, p.47et s-
- ⁶- عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص 555 وما بعدها.
- ⁷- شارل أندري جولييان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج 2، ترجمة محمد مزالي - البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1985، ص 87 وما بعدها.
- ⁸- عبد الرحمن الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج1، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1965، ص 291.
- ⁹- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج6، دار الكتب المصرية، 1923، ص485.
- ¹⁰- المصدر نفسه، ص 485.
- ¹¹- ابن عذاري، المصدر السابق، ص 254.
- ¹²- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 181.
- ¹³- المصدر نفسه، ص 181.
- ¹⁴- يقول البكري في هذا الصدد: " وهي جليلة حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما".
- ¹⁵- وصفهما صاحب كتاب الاستبصار في قوله: " وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر". الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاظم مراکشني من كتاب القرن السادس الهجري (12 م)، نشر مكتبة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 170.
- ¹⁶- البكري، المصدر السابق، ص 60.
- ¹⁷- النويري، المصدر السابق، ص 485.
- ¹⁸- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 181.
- ¹⁹- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، فصل منشور في حوليات المغر والأندلس، الجزائر، 1901، ص 377.
- ²⁰- المصدر نفسه، ص 372 .
- ²¹- البكري، المصدر السابق، ص 60.
- ²²- عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 417-418.
- ²³- البكري، المصدر السابق، ص 60.
- ²⁴- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 181.
- ²⁵- الاستبصار، ص 170.
- ²⁶- ذكرها البكري أشير.
- ²⁷- Capitaine Rodet, Les ruines d'Achir, in revue Africaine, 1908, p 86.
- ²⁸- عن آثار مدينة أشير أنظر: دفاثر أشير، المتحف الوطني للآثار، تقرير حفريات سنة 1993، العدد الثالث، 1994.
- ²⁹- Marçais(g), Manuel d'art musulman, t1, paris, 1926, p. 112.
- ³⁰- Berque (A), l'Algérie terre d'art et d'histoire, Parie, 1937, p. 121.

– Capitaine Rodet, op. cit. p 89. –31